العنف في الانتفاضات العربية

أسعد أبو خليل*

شُغل العالم العربي بمسألة العنف بعد ولادة إسرائيل الحربيّة. أدرك الشعب العربي أنّ العنف كان القابلة القانونيّة للاحتلال الإسرائيلي. لم يُخفِ مناحيم بيغن الأمر في كتابه، «التمرّد»، عندما اقتبس مقولة ديكارت ليقول بفخر الإرهاب الصهيوني: «نحن موجودون بقدر ما نحن نقاتل». ما قالته الصهيونيّة عن العرب ينطبق عليها: لا يفهم العدوّ إلّا لغة القوّة. ذلك ما أدركه جمال عبدالناصر، لكنّه أسند المهمّة القوميّة لإعداد عدّة القتال إلى رجل قد يكون أقلّ العرب كفاءةً في حينه (أعني عبد الحكيم عامر).

توصلت المنظمات الفلسطينيّة إلى خلاصة استراتيجيّة عن دور الكفاح المسلّح في تحرير فلسطين: كانت المنظمات الإسلاميّة (ولا تزال) تصرّ على أنّ أحكام الدين هي المصدر الأساسي للتشريع الدستوري، فيما كانت المنظمات الفلسطينيّة تصرّ على أنّ الكفاح المسلّح هو الطريق الوحيد (عند جبهة الرفض والرفض غير الممانعة، ويخطئ الكثير من المؤرخين عندما يدرجون، خطأً، النظام السوري في جبهة الرفض، بينما كان هو خارجها) أو الأساسي (عند حركة «فتح» ومن لفّ لفّها). أما اليوم، فيخجل الحكّام ومسؤولو منظمة التحرير (وهي هيكليّة تُدار بأموال خليجيّة وغربيّة) من إدراج الكفاح المسلّح وسيلةً من وسائل النضال المُتعدّدة. الأمر يرد كما ورد في خطاب ميشال سليمان في عيد الجيش، عندما قال إنّ لبنان يحتفظ (يحتفظ، للتاريخ؟) بحقه في «تحرير أو استرجاع» أراضيه المُحتلّة. ما قالهُ سليمان يعني أنّ لبنان يهدّد أنّه إذا فقد أعصابه، فهو قد يستعين بالعنف لتحرير أرضه، أو أنّه ينتظر (على طريقة النظام السوري الصبور) عودة الأراضي المحتلّة إلى الوطن من تلقائها. غادر الجولان رحم الوطن، وقد يعود، خبّر بذلك «العندليب» (العندليب نفسه الذي بشّر في أغنية أنّنا «سنرجع يوماً» يوماً؟).

يعظنا الرجل الأبيض بضرورة نبذ العنف في كلّ أشكاله. يريد منّا تسليم قاتلات الذباب. لكن الرجل الأبيض يقع في النفاق: يغدق الأسلحة على المجاهدين المتعصّبين في أفغانستان خلال الثمانينيات، فيما هو يعظ الشعب الفلسطيني بعدم جدوى العنف. سكان العالم السفلي ممنوعون من أن يسألوا: إذا كان العنف غير مجدٍ، فلماذا لا يزال الرجل الأبيض ينتهجه صبح مساء، ولماذا تبوّأت الولايات المتحدة الصدارة الدوليّة بالعنف الكوني؟ والرجل الأبيض لا يسمح لنفسه فقط بممارسة العنف في أبشع أشكاله، بل يعطي بعض مجموعات العالم السفلي الحق في تبنّي العنف وممارسته، إذا إلتزم بممارسته نيابة عنه وعن مصالحه. محظيّون هؤلاء. كانت الولايات المتحدة ترغي وتزبد ضد قيام حركة «فتح» بممارسة العنف في السبعينيات، قبل أن تعود وتسلّح حركة «فتح» وتموّلها بعدما إلتزمت الأخيرة ممارسة العنف ضد الشعب الفلسطيني وحده. لكن متى كانت المعايير أخلاقيّة أو مُخلصة لدى الرجل الأبيض؟ ومتى كان العالم المتقدّم يحرص على مصالح الشعب المُستعمَر؟ هم يقتلوننا من أجلنا؟

لا شكّ في أنّ الحكومات الغربيّة وإعلامها (المطواع) قرّروا باكراً أن يصنّفوا الانتفاضات العربيّة باللاعنفيّة. لم يقرّروا أنّ سمتها العفويّة غير عنفيّة، ذهبوا أبعد من ذلك بكثير. قرّروا أنّ الانتفاضات العربيّة هي عقائديّاً وفلسفيّاً لا عنفيّة. قرّروا بالنيابة عنّا جميعاً أنّنا وصلنا بهداية صهاينتهم إلى العقيدة اللاعنفيّة، وأنّنا لن نقبل منها بديلاً. قرّروا أنّنا قرّرنا تلقّي العنف من دون ردّ أو جواب. جريدة «نيويورك تايمز» طلعت علينا بمقالة طويلة مفادها أنّ الشعب العربي ثار لأنّه قرأ كتابات ضد العنف لجامعي أميركي مُتقاعد، اسمه «جين شارب».

حاولتُ إقناع الصحافيّة المثابرة في الجريدة عينها بأنّ الرجل غير معروف، وأنّ لا أحد سمع به. ولكن من دون جدوى. الأمر كان أكبر منها ومنّي. كان ذلك ولا يزال فصل الحرب النفسيّة في الثورة المضادة. خافت الولايات المتحدة أن تحرق انتفاضات مسلحّة مصالحها، في طول العالم العربي وعرضه. أرادت أن تروّج لضرورة الإلتزام القاطع باللاعنف، واختارت أفراداً من كلّ حالة كي تروّج لنبذ العنف. لكن الولايات المتحدة وحلف شماليّ الأطلسي أغدقا الأسلحة بالأطنان على «ثوّار» ليبيا، ظنّاً أنّنا لن نلاحظ تغيير المعايير وعدم الانسجام. كانوا يأمرون الشعب الفلسطيني بضرورة الانتفاض السلمي على الاحتلال، وعندما انتفض سلميّاً، أيّدوا قمعه وقتله (ليس فقط في الثمانينيات، بل في هذه السنة أيضاً على الحدود مع فلسطين). إنّ عزو دافع اللاعنف إلى الانتفاضات العربيّة كان جزءاً من خديعة دعائيّة لمصلحة إسرائيل، وراعيها الأميركي.

لا يعني ذلك أنّ فكر اللاعنف لا يُروّج له (بخلاف أدبيّات سياسيّة ثريّة مثل مقالة الرفيق عامر محسن في «حب» القنبلة) في بعض أزقّة العالم العربي وجاداته ومقاهيه وملاهيه. تتطلّع من النافذة وترى منظمات تنبت يميناً ويساراً: «نجّارون ضد العنف» و«دجّالون ضد العنف» و«نصّابون ضد العنف» و«مرتزقة مسلّحون ضد العنف» و«بقايا جيش لحد ضد العنف» و«حقوقيّون ضد العنف» و«مريدو فؤاد السنيورة» ضد العنف. هل هم الخبثاء الذين (واللواتي) يرون في كلّ تلك التنظيمات التي تحمل رسائل ذم بالعنف مشاريع إسرائيليّة؟ هل هم الخبثاء الذي يشكّون (ويشككن) في وجود مشاريع صهيونيّة غير خفيّة في مشاريع تنطلق في كلّ حارة تنوجد فيها حركة مقاومة ضد إسرائيل؟ كلما أصرّ طرف مُقاوم على حق لبنان أو فلسطين في الدفاع عن الوطن وفي ردّ العدوان، تطلع أصوات تتكرّر فيها عبارات عن جمال النضال «الحضاري» الذي مثّله السنيورة في سنوات حكمه (واستحق من أجله ثناءً غير محدود من قادة العدوّ وفق وثائق «ويكيليكس»). وللسنيورة مقلّدون: أو أنّهم (من سلام فيّاض إلى حسني مبارك) مقلّدون للآمر الأميركي.

العنف لصيق بتاريخنا المعاصر. يمكن القول إنّ دخول الغازي الأوروبي (وفي ما بعد الأميركي) إلى منطقتنا، أحدث ضجّاً للعنف على نطاق لم يكن معروفاً من قبل. محطات من العنف صاحبت كلّ إطلالة للمستعمر: من غزوة نابوليون في مصر، إلى الغزو البريطاني للعراق، أو قمع الثورة العربيّة في سوريا، أو الاستعمار الإيطالي في ليبيا، أو الاستعمار الفرنسي في الجزائر، أو قمع الانتفاضة الفلسطينيّة في حقبة الاستعمار البريطاني، أو «دانشواي» أو ما تلاها، التي قال فيها حافظ إبراهيم: «قتيل الشمس أورثنا حياة/ وأيقظ هاجع القوم الرقود، فليت كرومر قد بات فينا/ يطوق بالسلاسل كل جيد، لننزع هذه الأكفان عنا/ ونُبعث في العوالم من جديد». الغرب عرّفنا بممارسة مدى من العنف لم يألفه العالم العربي من قبل. ولم نتعلّم منه، إلا لماماً.

الأنظمة التي تلت حقبة الاستعمار، الجمهوريّة والملكيّة، استسهلت استعمال العنف ضد السكّان وتمتّعت برعاية واحد من الجبّارَيْن. لم يكن هناك مدى من العنف غير مقبول. وهذا كان، ولا يزال، على طريقة الإدارة الأميركيّة: هي تتصنّع التعاطف مع الشعب السوري في محنته وفي تعرّضه للقمع الدامي، فيما تتيح لإسرائيل أيّ تمادٍ في جرائم الحرب من دون سؤال أو تردّد. العنف سمة من الحياة اليوميّة السياسيّة في العالم العربي، مع أنّ المجتمعات الغربيّة، وخصوصاً في الولايات المتحدة، تشهد عنفاً اجتماعيّاً يفوق مستويات منطقتنا. (أما العنف المنزلي فتتقارب نسبه بيننا وبين النسبة هنا في أميركا، حيث تتعرّض نحو ثلث النساء للعنف المنزلي، والنسبة كانت مماثلة في دراسة شاملة أجريت في سوريا قبل بضعة أعوام). لكنّ الأنظمة العربيّة كلّها كانت مُستعدّة لخوض معارك ومجازر ضد شعوبها: العنف كان مُفضّلاً عند الأنظمة. سلسلة طويلة: من قمع مظاهرات العمّال في السعوديّة، وقمع العائلة المالكة في البحرين عبر العقود، أو مجازر البعث الدوريّة في سوريا وفي العراق، إلى الاستعانة بالجيش لقمع انتفاضات عمّاليّة في شمال أفريقيا، أو مجزرة سجن «بو سليم» في ليبيا. أما الحروب الخارجيّة، فقد تجنّبتها كلّ الأنظمة العربيّة ضد إسرائيل: من الضروري التذكير بأنّ العرب لم يبادروا إلى الحرب على إسرائيل إلا في 1973، ثم سارعوا إلى إيقافها، ما أدّى إلى قلب الأمور الميدانيّة، وتحويل إنجازات الأيّام الأولى إلى هزيمة أكيدة. طبعاً، أظهرت الأنظمة رغبة ونشاطاً في الحروب بين الأنظمة: إنّ كميّة المتفجّرات التي استخدمها جناحا حزب البعث أحدهما ضد الآخر، تفوق النسبة التي استعملاها ضد العدوّ الإسرائيلي. نظام السادات لم يلجم نيرانه ضدّ ليبيا مثلاً، في الوقت الذي كان السادات يزفّ للعالم (الغربي) بشرى نهاية الحروب على إسرائيل. والسعوديّة (ومَن وراءها وإسرائيل كانت وراءها) استنزفت نظام عبد الناصر في حرب اليمن، وكان المشير عامر أكثر حماسة في حرب اليمن من الحماسة ضد إسرائيل.

لكن إسرائيل وحلفاءها هم الذين ارادوا أن يضخّوا أفكار عدم جدوى العنف، فيما كانت إسرائيل نفسها وحلفاؤها يزدادون عنفاً وعدواناً. كان واضحاً أنّهم أرادوا أن يفرضوا وحدانيّة العنف لتحقيق مآربهم في السيطرة على المنطقة وفي وأد أي مقاومة للاحتلال أو حتى للدفاع عن النفس (يتشارك الحريريّون ضد العنف في لبنان مع إسرائيل في هدف نزع سلاح الدفاع عن لبنان). وكلّما تفاقمت عدوانيّة إسرائيل وعنفها، أراد الرجل الأبيض أن يفرض على ضحايا إسرائيل نبذ العنف. هو الاستسلام تحت شعارات غير مُنمّقة البتّة. لم تكن الولايات المتحدة تعظ ضد العنف عندما كانت تسلّح المجاهدين الأفغان. حتى اليوم، نفاق الإدارة الأميركيّة أكثر من صارخ: تصرّ على نزع سلاح حزب الله، فيما هي تسلّح ثوار الناتو في ليبيا و«ثوّار» سلام فيّاض في رام الله، بالإضافة إلى العصابات والعشائر القبليّة المُجرمة في العراق وأفغانستان.

وقد تسارعت التحليلات الغربيّة عن سلميّة الانتفاضات العربيّة بمجرّد أن اندلعت انتفاضة تونس. كانت التحليلات جزءاً من الدعاية السياسيّة المُبكّرة. لكن فكر اللاعنف لم ينتشر في المنطقة العربيّة ولم يجد له أرضاً خصبة، ولعل ذلك يعود إلى سيادة العنف ضد الشعوب العربيّة من قبل الأنظمة والعدوان الخارجي. ثم، كيف يجد العربي (والعربيّة) جدوى من اللاعنف وهو يرى زخم العنف الغربي المُتحضّر، طبعاً حول العالم؟ لم تبرز كتابات محليّة عربيّة ضد العنف. كانت هناك محاولات غربيّة لبث فكر اللاعنف. حاول الفلسطيني الأميركي مبارك عوض أن يجلب أفكار اللاعنف المُستقاة من طائفة الـ«كويكرز»، في الثمانينيات من القرن الماضي، إلى فلسطين، فما كان من إسرائيل إلا أن طردته واتهمته بالتحريض على «الانتفاضة المدنيّة»، ولم تؤثّر الاعتراضات الأميركيّة الخجولة جدّاً (لأنّ عوض مواطن أميركي). لكن أفكار عوض لم تنتشر ولم نسمع به مذّاك. صحيح، كانت منظمات أميركيّة وبعض المنظمات المحليّة، مثل مؤسّسة ابن خلدون في القاهرة، تعقد ندوات وورش عمل لنشر فكر اللاعنف. لكن من الصعب استساغة اللاعنف في مجتمعات تتعرّض للقصف الوحشي دوريّاً (كما قال أمل دنقل، «تَقتل أو تُقتل، هذا الخيار الصعب»).

نساء يمنيات يتبضعن لشهر رمضان في صنعاء (جومانة الحلوة ـ رويترز)

> غادر الجولان رحم الوطن، وقد يعود ولا يزال «العندليب» يبشرنا بأننا سنرجع يوماً إلى أرضنا

> تصر أميركا على نزع سلاح حزب الله فيما تسلح ثوار الناتو في ليبيا وسلام فياض في رام الله

الأخبار
تأسست عام 1953
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»

رئيس التحرير المؤسس
جوزف سماحة
(2007–2006)

مستشار مجلس التحرير
انسي الحاج

■ رئيس التحرير إبراهيم الأمين ■ نائب رئيس التحرير خالد صاغية ■ مديرا التحرير إيلي شلهوب، بيار أبي صعب ■ سكرتير التحرير وفيق قانصوه ■ العالم بشير البكر ■ اقتصاد محمد زبيب ■ وحدة الأبحاث عمر نشابة ■ المدير الفني إميل منعم

■ رئيس مجلس الادارة والمدير المسؤول ابراهيم الأمين
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 113/5963
■ www.al-akhbar.com

■ الاعلانات Tree Ad / 611115 / 01 ـ 252224 / 03
■ التوزيع شركة الأوائل 15 ـ 666314 / 01 ـ 828381 / 03